

لغة الرواية العرفانية ومصطلحاتها، رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان أنموذجاً

كوثر محمد علي محمد صادق جبارة *

قسم الفنون التشكيلية كلية الفنون الجميلة، جامعة دهوك، إقليم كردستان – العراق. (Kawthar.jabara@uod.ac)

تاريخ الاستلام: 2025/02 تاريخ القبول: 2025/07 تاريخ النشر: 2026/06 <https://doi.org/10.26436/hjuoz.2026.14.2.1579>

الملخص:

يناقش البحث إشكالية لغة السرد، وبالتحديد السرد العرفاني، وطارحاً مجموعة من التساؤلات تبدأ بالسؤال عن ماهية الرواية العرفانية وهل تعد رواية تاريخية أم هي أسلوب سردي منفصل عن الأسلوب التاريخي؟ وهل لها لغة خاصة بها تختلف عن لغة الروايات العربية المعاصرة؟ وكيف تكون هذه اللغة وهل تختلف في الرواية نفسها بين لغة الحوار ولغة السرد؟ يحاول البحث إيجاد أجوبة على كل تلك الأسئلة من خلال تجربة الروائي السعودي محمد حسن علوان، وروايته "موت صغير" أنموذجاً. ولم يغفل البحث عن أهمية تجربة الباحث والروائي المغربي الدكتور عبد الإله بن عرفة الذي تعدد المصادر النقدية الحديثة رانداً لتجربة السرد العرفاني أو الرواية العرفانية العربية، من خلال مشروعه الروائي متعدد النماذج، لكن اختيار البحث لرواية محمد حسن علوان كان لعدم وجود دراسة مشابهة تناولتها بالبحث، بينما تعددت المصادر والدراسات الأكاديمية والمطبوعات حول تجربة الدكتور بن عرفة الروائية.

قسم البحث على ثلاثة مباحث، موظفاً المنهج البنوي السرد في تحليله للرواية قيد الدراسة، كان المبحث الأول نظرياً بعنوان (الرواية العرفانية: المفهوم والبيدات)، أما المبحث الثاني فتناول (لغة السرد العرفاني وخصوصيتها)، وأما الأخير فمبحث تحليلي بعنوان (اللغة العرفانية ومصطلحاتها في رواية "موت صغير"). ومن الجدير الإشارة إلى كون هذا البحث هو واحد من سلسلة أبحاث في العلاقة بين الرواية العربية والتاريخ العربي وجزء منه العرفان العربي الإسلامي.

الكلمات الدالة: الرواية السعودية، الرواية العرفانية، لغة السرد، موت صغير، محمد حسن علوان، السرد، العرفان

1. الرواية العرفانية، المفهوم والبيدات:

1.1. السرد والعرفان:

التحديد الذي تذهب إليه المعاجم اللغوية لمعنى العرفان ولا سيما الأصول التي قدمها ابن فارس يراها الباحثون تذكر بمعنى السرد نفسه في اللغة؛ إذ هو: تَقْدَمَةُ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ تَأْتِي بِهِ مُتَسَقًا بَعْضُهُ فِي أَثَرِ بَعْضٍ مَتَّابِعًا. ما يشير إلى أن هناك علاقة، لكنها غير مفعلة، أصلاً ولا تجوّزاً، إلا حسب آلية التخيل الذي يعيد بناء هذه التجربة النوعية ويقوم بتسريدها ضمن نصّ تعاقبيّ تحكمه حبكة روائية متصلة تتخللها وقفات (السكون والطمأنينة) التي تفترضها التجربة نفسها، ليس باعتباره تجربة ماضية تمت وانقطعت في التاريخ، بل دائمة التدفق وفق مقولة (الشهادة بالحضور)، التي هي عماد الرواية العرفانية (الوراري، عندما يتحول بطل الرواية إلى شاهد أني، 2017)، ويطلق ألبيريس على نوع من أنواع الروايات التي ظهرت في القرن الثالث عشر الميلادي تسمية (الروايات الصوفية) ويشير إلى أن حنين الرواية الصوفية التي اكتشفها القرن الثالث عشر استمر خلف المجازية العالمية والشعرية وقد غذّاه حلم العالم بالحكمة أو بالعلم الفلسفي السري، وخلف الرواية اللاواقعية المسحورة بالمعنى الثاني للأشياء، وستكتشف الرومنطيقية الألمانية الرواية الصوفية وسيعيشها نرفال في فرنسا، هذه الرواية التي تفهقرت في القرون الوسطى إلى رواية الفروسية ثم إلى رواية خيالية، تعمدت النزعة العقلية الكلاسيكية تجاهلها، وحولتها الفترة ما بعد الكلاسيكية إلى حكايات جنيات. لقد عاشت هذه على هامش الرواية، مادامت

* الباحث المسؤول.

الرواية إلى ضفاف لا تتوقعها؛ ومفهوم ثان هو مفهوم الحاضر أو شهادة الحضور الذي يستوعب الماضي والمستقبل معاً، فيعيد طرح قضايا سابقة وقعت في مجرى التاريخ الجماعي، وبخاصة تلك القضايا الملحة التي لا تزال ماثلة أمامنا، تخاطب الوجدان والمعرفة والمخيل، ونتيجة ذلك يتحول المفهوم نفسه إلى صك اتهام حاضر ودائم، وينأى بالرواية العرفانية عن تصنيفها ضمن رواية التاريخ، وإن اعتمدت مثلها على خصائص محددة، مثل هيمنة السرد بصيغة الفعل الماضي، ومراعاة التسلسل الزمني للأحداث (الوراري، الرواية العرفانية: قضايا النوع، الكتابة والمتخيل، 2015، صفحة 12)، ويشير الوراري إلى أن مشروع السرد العرفاني "هو مشروع يردّ مفهوم القطيعة ويرفضها التي كانت رائجة في لحظة ثقافية معينة، ويسعى إلى إعادة الوصل مع ذاكرتنا وتاريخنا وموروثنا الثقافي والأدبي والفكري والعرفاني، والتفكير والتجديد فيه" (الوراري، الرواية العرفانية: قضايا النوع، الكتابة والمتخيل، 2015، صفحة 13)، وتعني الرواية العرفانية عند الدكتور إبراهيم الحجري "الرواية التي تتفاعل مع مجال التصوف العالمي أو العربي، وتنهل مادتها منه، وهي تتداخل مع الرواية التاريخية، وتتقاطع معها من حيث العودة إلى التاريخ العام أو الخاص والحفر في ثناياه لا بقصد استعادته في جموده، بل من أجل تحيينه وقرآته قراءة جديدة تملأ فراغاته وترمم ثقوبه، إذ لا يتم التركيز على الوقائع والأحداث التاريخية، بل تسعى إلى تمثيل المشاعر الكامنة والعلاقات التي تربط الناس والعالم في جدلية السيرورة الحياتية. وهنا تكمن حرفية الروائي الذي سوف يجتهد لملء ثقب التاريخي الذي لا تهمة الأحاسيس، ولا سيما مع الرواية الصوفية التي تدخل فيها ذات الفرد أو الشخصية برحلة جوانية، وتجربة عرفانية ليس من السهل تقمصها، إذ سرعان ما يجد الكاتب نفسه، انطلاقاً من لعبة الأفتعة متمهاً مع شخوصه في تعاليها عن الواقع، وسفرها إلى العوالم الروحانية" (الحجري، 2015، الصفحات 17-18)، ويشير الدكتور رسول رسول إلى كون مصطلح الرواية العرفانية يشي بمخاطر قلقة كونه الدلالي من الناحية المفاهيمية والمعارفية الأبيستولوجية والتجسسية حتى قدر تعلقه بالفن الروائي، لكنها العودة إلى النصوص الأصل أو نصوص التأصيل الأولى لهذا الضرب من الكتابة الروائية الذي يحفل بتسريد العرفاني قد تضعنا عند تخوم دلالة مصطلح الرواية العرفانية (رسول، 2015، صفحة 26)، ويجد بعض الباحثين أن طبيعة الرواية العرفانية لا تختلف عن غيرها من الروايات، فهي قائمة على تصورات عامة هي نفسها موجودة في الروايات الأخرى، وتخضع للخطاظة السردية نفسها التي تخضع لها الروايات الأخرى، غير أن هوية السرد العرفاني تقوم على التشكيك فيما تلنقطه الحواس بوصفه حقيقة يتم الاطمئنان لها والوقوف عندها (البريكي، 2015، صفحة 33)، وقد لا يخرج أي تعريف يختاره البحث للرواية العرفانية عن كل ما ذكر، فالرواية العرفانية هي تلك الروايات التي أعادت تخيل التاريخ في جزئياته المتعلقة بالتصوف الإسلامي ودرجاته، وضمنت بين جنباتها رحلة البحث عن المعرفة متوسلة بهذه الرحلة شخصيات صوفية والعرفانيين، وتجاربهم متأرجحة بين الواقع والمتخيل، ترتبط من ناحية بالتاريخ من حيث أن الشخصيات العوالم التي تنقلها عوالم سالفة انضمت إلى تاريخ مضى وسبق زمن الكتابة، والشخصيات ذاتها صارت جزءاً من أجزاء التاريخ العربي الإسلامي.

1.3 نماذج الروايات العرفانية العربية وريادتها

وإنما بجوهره وهو البحث والانتقال والتجربة التي توصل إلى الكشف، غير أنها في العالم العربي والتجربة السردية العربية بسبب كون الثقافة السائدة هي الثقافة الإسلامية فلم يكن العرفان والتصوف الذي احتفت به الرواية العربية غير التصوف والعرفان الإسلامي.

1.2 مفهوم الرواية العرفانية:

تعد الرواية العرفانية من أبرز الأنواع التي أسهمت في بناء شكل ومحتوى قرائي رائد ومبدع "فليس هو الذي تغير وحده منذ القرن الثالث عشر بل الحساسية وبناء الجملة ورؤية القصة بخاصة إن كل شيء يقدم على نحو متعارض، من غير هذه الصلة التي تكون الشعور المؤلف لدى القارئ الحديث" (ألبيريس، 1982، صفحة 412) فالسياق الثقافي للرواية النورانية يفرض نفسه على القارئ، هذا الأخير الذي لا يسعه أن يقرأ الرواية التي يبين يديه إلا في إطارها الثقافي، ولطالما أصيب القارئ أمام الرواية العرفانية بخيبات أمل تنتهي بكسر أفق انتظاره، إذ تسير الرواية في غير الاتجاه الذي ينتظره المتلقي وهو إن دل فإنما يدل على استقلالية الرواية العرفانية بذاتها ومن ثم تميزها عن غيرها من الأجناس الأدبية، وهي الرواية العرفانية ذلك النوع من السرد الذي يرمي لتأسيس فن أدبي ذي خلفية دينية وبالضبط قرآنية، تخوض في الأمور العرفانية التي تعد بدورها سلوكاً دينياً منشأه الزهد من متاع الدنيا والاكتفاء بسد الرمق (بن صغير و بريكة، 2020، صفحة 27) ويعد التخيل بوصفه آلية أو تقنية من تقنيات الروائي مساعداً بدوره على نقل وتحويل التجربة الصوفية التي يحيها الصوفي إلى خطاب، وتتخلل هذا الأخير وقات السكون والطمأنينة انطلاقاً من التجربة ذاتها دائمة التدفق، وفق محور ولب الرواية العرفانية ألا وهو الشهادة بالحضور (بن صغير و بريكة، 2020، صفحة 26)، فالتخيل هو أي تاريخ يُبنى على وقائع متخيلة أكثر منه على وقائع حقيقية. والشخصيات فيه شخصيات خيالية. ويمكن أن يكون عمل التخيل شفافاً أو مكتوباً، في مجال الأدب والسينما والمسرح، أو في أي مجال سمعي بصري. بيد أن الوقائع الممثلة في التخيل ليست كلها بالضرورة متخيلة، وذلك مثلما في حالة الرواية التاريخية التي تتأسس على وقائع تاريخية مؤكدة، بل التي تستفيد من فراغات التاريخ من أجل أن تُدخل فيه شخصيات وأحداث مستوحاة من خيال المؤلف. وإذا كانت الأحداث أو الشخصيات متخيلة، فلا ينبغي بالقدر ذاته أن تكون غير حقيقية. لكي يشتغل التخيل، يبدو ضرورياً أن ينخرط ناجز التخيل فيما يصفه، أن يصير جزءاً من نسيجه وسداه. وإذن، فالتخيل يجب أن يخلق انطباع الواقعي: الفرد الذي يتوجه إليه التخيل عليه أن يعتقد، لفترة محدودة من زمن الحكى، أن هذه الوقائع ممكنة (الوراري، عندما يتحول بطل الرواية إلى شاهد آني، 2017).

يشير الدكتور عبد الإله بن عرفة رائد هذا النوع من الروايات إلى أن المصطلح (الرواية العرفانية) نابع من كون حقيقة الهدف من السفر والسلوك إلى حضرة القرب هو طلب المعرفة، وإن طالب المعرفة يسمى عارفاً، فكان لزاماً أن تكون هذه الرواية عرفانية (بن عرفة، 2015، صفحة 55) ويحدد مفهوم الرواية العرفانية في مفهومين رئيسيين، الأول مفهوم الكتابة بالنور وعبر السفر فيه من عالم الواقع إلى عالم الخيال، الخيال الخلاق، بقدر ما يستلهم مصدره من القرآن وأسرار حروفه وتجليات بحره، فينكشف للذات العارفة من علوم ومعارف واستيهامات ما ينقل نص

عرفانية ولا تشدد مرجعياتها التاريخية أو الإسلامية، كما نجد عن ابن عرفة وعلوان.

ومن هذه النماذج رواية (شمس تبريز 2020) لأحمد الشطري التي لم تختار لسرد الأحداث شخصية صوفية تاريخية، وإنما شخصية ورقية معاصرة، لا وجود تاريخي لها، وتتعرف على عوالم التصوف الإسلامي من باب الشعر والأدب الصوفي وتستكشفه، غير أن النقطة الأبرز في هذه الرواية التي ربطت بين التصوف والنص الروائي هي دلالات الأسماء وتوظيفها. وأقول التصوف وليس العرفان قاصدة. إذ سبق لنا الإشارة إلى أنهما شيء واحد لكن بمستويين مختلفين، عام وخاص، فرواية الشطري بقيت في مجال العام، ولم تدخل في عمق العرفان الإسلامي الخاص بمعناه المعروف ومرجعياته وتفصيلاته، فضلاً عن بنائها الفني المغاير للبناء الفني للروايات العرفانية التي سبق البحث فيها ما يخرجها من إطار الروايات العرفانية.

أما النص الثاني عراقياً فهو رواية (دقوف رابعة العدوية 2022) للروائي العراقي عبد الستار البيضاني، التي حازت على جائزة الإبداع العراقي لعام صدورها فهي أيضاً لا تعد رواية عرفانية بالمعنى المحدد، إذ أنها اعتمدت على الشخصيات الحديثة في الزمن المعاصر واستلهمت شخصية رابعة العدوية من عنوانها إلى رمزية تلك الشخصية وارتباطها بالبصرة وباللذة الجسدية من ناحية والروحية ممن ناحية ثانية. هذا ما استطعنا الوقوع عليه من ارتباطات بين التصوف والعرفان الإسلامي مع السرد الروائي العراقي، مع استثناء روايات الروائي العراقي عبد الخالق الركابي بوصفها خاضت هذا المجال في وقت متقدم جداً، يمكننا وصفه بأنه منح الريادة للركابي في مجموعة روايات منها (سابع أيام الخلق) وقد أشرنا لذلك آنفاً.

2. لغة السرد العرفاني وخصوصيتها:

اختلاف لغة الروايات العرفانية وتفردته إنما مرجعه إلى طبيعة اللغة العرفانية ذاتها، إذ تملك اللغة في العرفان تصوراً خاصاً ومختلفاً عما هو عليه في السياقات المعرفية المختلفة، فإذا كانت تعد وسيلة للتواصل في عرف اللسانيات فإنها في التصوف الإسلامي تجربة روحية ومعاناة لا تقترب عن سائر التجارب الحسية أو الباطنية الأخرى التي يعانها صاحب العرفان. وللصوفية أقوال وتأملات كثيرة في الحرف والاسم والإشارة والعبارة وسائر القضايا اللسانية، كلها توحى بتجاوز الصوفي للقضايا التقليدية التي يقف عندها النحويون أو البلاغيون للتفكير من داخل اللغة إذا جاز التعبير، وما دامت اللغة تجربة فهي تخضع بالضرورة للتأمل الخالص والاستمرار، أي البحث عن الأسرار الخفية التي تقف وراء هذه الحروف المعجزة المعبرة عن المعاني والمشحونة بقدرة تعبيرية فائقة والتي لا يمكن الاستغناء عنها أبداً (خطاب، 2006، صفحة 62)، وتتصادم القدرات التعبيرية في مجال اللغة العرفانية مع خصوصية التجربة الروحية الصوفية، فتعرض تلك اللغة لإرباك يمتحنها في قدرتها عن التعبير عن كنه هذه التجربة، وقد يصل الارتباك إلى حد التناقض في تصوير حقيقة التصوف من جهة أن قوى الإنسان الروحية والعقلية والحسية، وذكرياته ومواجهه وأشواقه هي منبعه الذي يغذيه ويحقق وجوده، وهي مظهره وتجليه، فالنصوف هو الإنسان بما يعنيه من حركة فكر وروح وانفعالات وتطلعات موزعة بين الأزمنة الثلاثة: الحاضر والماضي والمستقبل. إن هذا التركيب افتقر إلى لغة خاصة، لأن اللغة المعهودة محددة المعاني ومحدودة الاستيعاب وموقوفة في أفعالها

نجد في تراثنا العربي أشكالا من النثر الصوفي أو السرد العرفاني الذي تهيم فيه القيمة الأدبية أكثر من القيمة العلمية، كما نكتشف في هذا التراث متناً من أدب الكرامات الصوفية بوصفها نصاً إبداعياً سردياً مستقلاً، له مكوناته ووظائفه الجمالية والتخييلية والروحية والمعرفية، وفي الأدب الحديث والمعاصر يستثمر العديد من كتاب القصة والرواية هذا التراث الصوفي والعرفاني، ويجمعون خطاب اللغة الصوفية في شق واسع من سردياته الكبرى، ويمكن التمثيل بأعمال مثل (كتاب التجليات: الأسفار الثلاثة 1990) للغيطاني، و(سابع أيام الخلق 1995) للركابي، و(مجنون زينب 1997) للامي، و(جارات أبي موسى 1997) وشجيرة حناء وقمر 1998) لأحمد توفيق، وليس آخرهم يوسف زيدان في (غوانتنامو 2013) (الوراري، الرواية العرفانية: قضايا النوع، الكتابة والمتخيل، 2015، صفحة 11)، غير أن استقرار وانفراد النوع السردى وإطلاق المصطلح كان متأخراً وحاز على ريادة هذا النوع من السرد كما سبقت الإشارة للكاتب والباحث الدكتور عبد الإله بن عرفه الذي عمل في مشروعه الروائي العرفاني على الأدب والرواية انطلاقاً من مفهوم جديد للأدب وسمه بأدب الحضور أو أدب المعنى، وهو حضور في الآن الدائم أو الحاضر المستمر، والأين الواحد، والنفس الكلية التي هي المثل الأعلى حيث لا ينكشف المعنى إلا بالحضور، وقد بين صاحب المشروع الروائي العرفاني موقفه من فلسفة التاريخ في عدد من البيانات الأدبية التي كان يصدر بها رواياته التي نشرها بإدخال "مفهوم جديد هو مفهوم "الشهادة بالحضور"، أي أن المبدع حين يكتب عن أحداث الماضي يكتب عنها وهو حاضر فيها، منحرف في نتائجها المستقبلية، شاهد على ما جرى وما قد يجري. وبقدر حضوره في تلك الأحداث ونتائجها يُقبل أو تُردّ شهادته. وبقدر حضوره يكون لتلك الشهادة صدقيتها من عدمها، كما أن حضور القارئ في النص الروائي المكتوب هو الذي يحدد مستوى فهمه لما حصل، وبقدر حضوره يكون فهمه، فهناك مستويات للفهم لأن هناك مستويات للحضور، وهذا التصور الجديد في الكتابة الروائية هو الذي جعله يشغل على قضايا حضارية عاقلة لحد الآن (نجاحي، 2016، صفحة 184) ويتكون مشروع بن عرفه السردى العرفاني من سبع روايات مصنفة في مراتب وفقاً لمصطلح المراتب العرفانية عند الصوفية وتنطلق التسمية من الحروف النورانية ونسق توظيفها كعناوين للروايات وأولها الحروف المفردة وهي ثلاث (جبل قاف 2002، بلاد صاد 2009، بحر نون 2007)، وتلتها الحروف الثنائية وهي أربع روايات (الحواميم 2010، طواسين الغزالي 2011، ابن الخطيب في روضة طه 2012، سر المحبة، 2015) (نجاحي، 2016، صفحة 185)، ولم ينته هذا المشروع إلى يومنا هذا، إذ صدرت في أثناء كتابة هذه الدراسة رواية عرفانية أخرى لابن عرفه بعنوان (لا فتى إلا علي 2024).

وإن مررنا على تجربة الرواية العرفانية في العراق، وجدنا فقراً في هذا الجانب، إذ استقرأ النصوص الروائية العراقية الحديثة والمعاصرة نجد غياب الرواية العرفانية العراقية عن الخطاب السردى العراقي، ما خلا عدد من الروايات التي تشي بروحي عرفانية، لكنها لا يمكن تصنيفها على أنها روايات عرفانية وفقاً لما أشرنا إليه واعتمده لمصادر من خصائص وتعريف لهذه الروايات، فهي لا توكل السرد لشخصية تاريخية

إلا من قبل الخاصة من الصوفيين، وربما لصوفية عصر من العصور دون غيره، وحرص أولئك الروائيون -أيضاً- على أن تكون النصوص المختارة ذات بعد إنساني عام، يحتمل دلالات عامة غير مقتصرة على الطائفة الصوفية دون غيرها، أو عصر دون غيره، كذلك انتقى الغيطاني وغيره من الكتاب المجددين من ذلك التراث أساليب وتقنيات فنية ونماذج شخصية، غلب عليها الطابع العجائبي والروحاني الفلسفي، الذي يتقاطع مع الموروث الإنساني العام (المقيم، 2020، صفحة 58) بينما أقيمت بعض الروايات الأخرى النصوص الصوفية حبسة الدلالة الصوفية البحتة، فابن عرفة يركز على الجوانب المعرفية والفكرية في حياة ابن عربي دون الالتفات إلى الجانب الإنساني من حياته، وبهذا كان أسلوبه أكثر تعالفاً مع الأسلوب الصوفي واللغة الصوفية مما هو لدى غيره، فالدارس يلاحظ من القراءة الأولى أن "عبد الإله بن عرفة" يقدم كل جملة سردية وفق أسلوب يمزج عن الأسلوب التاريخي نحو أسلوب لغوي من بنية اللغة الصوفية سبباً لتقديم الأحداث. فصارت بهذا لغة رواياته مبنية وفق لغة منغلقة لا تؤول إلا من خلال أتباع ذلك المنهج العرفاني ومريديه، مما ضيق من محدودية تلقي سيرة ابن عربي لعامة المتلقين، وقد تنبه علوان إلى ضيق مساحة التلقي في ذلك العمل الروائي، وجعل من "موت صغير" سيرة ذاتية لابن عربي ذات طابع إنساني يتلقاها جميع البشر بكافة توجهاتهم وعقائدهم، وقد تم ذلك بالفعل حينما ترجمت الرواية إلى عدة لغات، بسبب ما امتازت به من طابع إنساني عام، واحتوائها لأفكار ونصوص تدعو للتسامح مع الديانات والثقافات الأخرى (المقيم، 2020، صفحة 59)، وأخيراً فإن لكل روائي أسلوبه الخاص ومعجمه اللغوي وتراكيبه وجملة الخاصة، ولكل عمل من أعماله خصوصية في مفرداته وتراكيبه النابعة من طبيعة العمل نفسه، من الفترة التاريخية التي تدور فيها الأحداث، فضلاً عن طبيعة بناء الشخصيات ومستوياتها، فيؤثر الأول على لغة السرد، بينما يؤثر الثاني على لغة الحوار، وطالما اختطت الرواية العرفانية مسارها في صفحات التاريخ العربي الإسلامي القديم في القرون المنصرمة، فإنها ومن كل بد ستكون ناطقة بلغة تلك القرون سرداً وحواراً، فتكون اختيارات المؤلف والحال هذه متناسبة مع أساليب ذلك العصر وتراكيبه، فضلاً عن تناسبها مع طبيعة الحقل المعرفي الصوفي والمرجعية الإسلامية اللذين تندرج ضمنهما الرواية العرفانية.

2.1. اللغة العرفانية ومصطلحاتها في رواية (موت صغير)

بما إننا عددنا الرواية قيد البحث (موت صغير) من الروايات العرفانية، فإن ما أوردناه من آراء عن لغة الرواية العرفانية يمكن التماس صداها بوضوح في العمل السردية، الذي استطاع فيه مؤلفه أن يوظف اللغة الصوفية مع اللغة الشعرية، فهي ليست لغة "مغرقة في الرمز والإيماء كما عند المتصوفة، بل هي لغة متداولة لدى الكُتاب، متفق على معانيها ودلالاتها من قبل العامة، فلا تتطلب قارئاً خاصاً يمتلك مفاتيح الفهم والتأويل الصوفي بخلاف ما كتب من روايات عربية أخرى، غلب عليها الأسلوب الصوفي من خلال اللغة والمصطلحات الخاصة بها، مما سببت لدى القارئ العادي عزوفاً عنها كما في رواية جبل قاف لابن عرفة مثلاً" (المقيم، 2020، صفحة 55)، وهذه اللغة الشعرية وما تحملها من مشاعر وصراعات نفسية لدى أبطال روايات المؤلف تكشف في مجملها عن مفارقات ومتضادات قريبة من أجواء اللغة الشعرية إذ إن هذه المفارقات "والثنائيات المتضادة تنهض بتحقيق قدر عالٍ من الشعرية لما تتضمنه من دهشة

على زمن واحد، وهذا لا يقوى على حمل نفثات الصدر لدى الصوفي الهائم في أفق الوجدان والتهيه الروحي، الخارج عن حدود الأزمنة (ملاحي وآخرون، 2022، صفحة 9)، ويعبر النَّفْري عن هذا المعنى في موافقه بقوله "وقال لي الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني" (النفري، د.ت، صفحة 59)، كما أشار في موضع آخر "وقال لي كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة" (النفري، د.ت، صفحة 51)، فاللغة بالنسبة للعالم ميدان خبرة، وبالنسبة للعارف ظل للتجربة الروحية، فالتجربة أثمن من اللغة ذاتها، وينحصر عمل اللغة في هذه الحالة في إظهار التجربة أو ما توصل إليه العارف بكشفه ومشاهداته، وحتى في هذه الحالة فاللغة عاجزة عن إظهار مكونات التجربة تبعاً لما يقول البسطامي نفسه: "من عَرَفَ الله بهت ولم يتفرغ إلى الكلام" ولكن الصوفي دائماً في حال عجزه عن التعبير هو بحاجة إلى لغة تعبر عن فكرة العجز ذاتها، وليست المسألة متعلقة بحالة من العجز أو القصور، بل تتعداهما إلى حالة من التأمل البعيد في اللغة ذاتها بوصفها نظاماً إشارياً رمزياً جمالياً، وهذا موقف يتجلى عند علمين من أعلام التصوف هما أبي حيان التوحيدي وعبد الجبار النَّفْري. فأما التوحيدي فكان لتأملاته الروحية في اللغة شأنها البعيد في ترسيخ فهم جديد للمعرفة يتجاوز كل فهم تقليدي بائس، فهو وإن كان ينتمي إلى مدرسة الجاحظ من حيث الكتابة فقد انحرف بالكتابة وامتحنها في التجارب العسية عن التعبير، فهو لم يعبر عن المعرفة باللغة بل عبر عن حالات وجدانية فريدة لا تعاني إلا على مستوى الفرد ذاته ونتج عن ذلك اختبار الكلمات وقياس حضورها في التجارب الروحية، وقد تخلقت صور شتى من التأملات داخل اللغة ذاتها، حلت عن هذه بسبب طبيعة المعنى وخصوصية التجربة، فضابط عجز اللغة التي اكتمل علم نحوها وصرفها على أيدي العلماء المتخصصين صارت شبيهة وظناً وعجزاً وحجاباً عن حقيقة قد لا تنتمي بالضرورة إلى عالم الأرض (خطاب، 2006، صفحة 65)، فبدأ العقل الصوفي يضيق باللغة المعجمية وهي الحاملة للمعنى الأولي أو الوضعي، فلجأ إلى اللغة الاستعمالية التي تتخذ من المحيط الملابس لها روافد تضخ الحياة والحركة فيها، ومعلوم أن الاستعمال يمهّد الطريق للطبي والإضمار والتقدير والتقديم والتأخير والحذف، وهي مساحات شاسعة يملؤها المخاطب والمتلقي على حد سواء بما يراه أو يرياه صالحاً للقبول (ملاحي وآخرون، 2022، صفحة 21) واتسع نطاق التجوال البياني لدى الصوفية حتى قلبوا العبارات وجلبوا لأنفسهم أدنى كثيراً، وذلك لأن عبارتهم منفصلة عن واقع الناس ومنسوجة في معامل الروح، وقت التجلي والمشاهدة، وهذا ما عرف باسم الشطحات الصوفية، وتطور هذا الاتجاه في الصياغة اللغوية حتى غدا لغة خاصة، قد نفهم ألفاظها لكن لا مطعم لنا في معانيها، حتى انبرى الشراح بعد أن عاشوا التجربة الروحية كما عاشها واضعوا تلك الكتب (ملاحي وآخرون، 2022، صفحة 22)، وطالما كانت هذه الحال مع اللغة الصوفية والعرفانية المنبثقة من التجربة ذاتها، صارت الروايات التي تحاكي تلك التجربة تحاكي لغتها في الوقت ذاته، ونجد هذا في نماذج متعددة من الروايات العرفانية العربية، إذ أسهم الغيطاني وغيره من الروائيين في تغيير لغة الكتابة الأدبية ذات الطابع الصوفي، وتغيير طريقة توظيف النصوص الصوفية في لغة الأدب والرواية بشكل عام، من خلال استدعاء نصوص صوفية مناسبة لعصر المتلقي الحديث، وموضوع الرواية، إذ إن التراث الصوفي قد حوى كثيراً من المصطلحات الغامضة، التي لا تفهم

إن تتبعنا اللغة العرفانية في الرواية وجدناها في مستويي السرد كليهما، غير أنها تتضح في المستوى الأول كثيراً عند السارد الأول، الذي نكتشف لاحقاً أنه الشيخ ابن عربي والذي منه يبدأ سرد رحلة المخطوطة في العام 610/1212م في أذربيجان، مع شخصية هذا السارد الزاهد الذي لا يؤثت كوخه إلا حشبة من صوف وطست وضوء، ويقدم لنا نفسه بلغة نلمح فيها النفس العرفاني واضحاً في اختياراته اللفظية، يقول السارد: "ما أكثر هذا المتاع على طالب الخلوة وما أمضاها في إفسادي. إذا سهرت لأشهد مطالع الأنوار الإلهية ضيغت علي ذلك حشبة الصوف بالنوم، وإذا لظمت الصمت لأسمع حفيف الأسرار القدسية قرقرت بطني فجعت وانشغلت، وإذا أشعلت مصباحي وأخرجت أوراقي وغمست دواتي في قنينة الحبر ووضعتها حيث توقفت ليلة البارحة انشق من حيث تتماس الدواة والورق شبك تطل منه أرباض الأندلس وأزقة فاس وزوايا تونس وخوانق القاهرة وشعاب مكة وحوانيت بغداد وغوطة دمشق وبحيرات قونية.. أي عزلة هذه" (علوان، 2016، صفحة 8) فاختار السارد للتعبير عن الفجر أو شروق الشمس تعبير "الأنوار الإلهية"، والأنوار حقيقتها معلومة وهي الضياء، أما إضافتها للإلهية، فمرده إلى فكرة معنى الألوهية التي يشار بها إلى الذات العلية الموجودة في كل شيء شهوداً ورؤية، عارية عن كل شيء متباعدة عن كل شيء عياناً وحقيقة (حمدي، 2000، الصفحات 47-48)، وأما سكون الليل فاختار له تعبير "الأسرار القدسية" والسر عند المتصوفة فيض من الأنوار الإلهية يرد على العبد قبل الفتح إذ سرى في ذاته وقلبه حمل الذات على طلب الحق ومتابعته، ومنعها من الباطل ومتابعته، عملاً وحالاً (حمدي، 2000، صفحة 66)، فهو "ما يقذف الله في قلب العبد من المفهوم، ومنها ما يعرف العبد بما يريده الله من تصارييف الأكوان، ولماذا وجد هذا المكون جوهراً أو عرضاً وما يراد منه، وما ينشأ عنه، ومن أي حضرة هو. ومن الأسرار ما يريح العبد عن كليته ويخرجه عن دائرة حسه ويغرقه في بحر الحضرة الألوهية، بحيث أن لا شعور له فيما عداها من نفسه وغيرها، فيسمع هناك ويشهد ما لا طاقة للعقول بفهم مبادئه فضلاً عن درك غاياته" (حمدي، 2000، صفحة 66)، فالسارد في المقطع الأول من الرواية ينتظر أن يفاض عليه بالأسرار الإلهية، وهذا ما لا يتحقق لأنه كما يشير يشغل بأموره، بالجوع والنوم. ويكمل السارد في هذا المقطع انثيالات اللغة العرفانية ويعود بنا إلى مسيره السابق لوصوله إلى الكوخ الذي يسرد منه، موظفاً المفردات والأحداث الصوفية التي خاضها خلال تجربته ومبايعته لأقطاب الأرض، قبل أن يصل إلى مكان عده مناسباً للمبايعه، يقول السارد: "وفي الصباح كانت السماء صافية فترأى لي كوكبي هذا عن بعد. اتجهت إليه فوجدته مهجوراً منذ أمد لا يبدو قريباً، فعلمت أنني بلغت المعتزل الذي يليق ببيعتي قطباً بعد خمسين سنة على طول طريق الله المحفوف خلوةً وسفراً وجوعاً ورياضة ومجاهدة" (علوان، 2016، صفحة 9). فإن حددنا المصطلحات العرفانية التي وظفها السارد في هذا المقطع ستكون: (القطب، الطريق، الخلوة والمعتزل، السفر، الجوع، الرياضة والمجاهدة) فالقطب هو الواحد الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم، في كل زمان وهو على قلب إسرافيل (الكاشاني، 1992، صفحة 162) (الجرجاني، 2003، صفحة 212)، وأعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد، بيده قسطاس الفيض الأعم، وزنه يتبع علمه، وعلمه يتبع الحق، وعلم

ومفاجأة وتناقض يصدم خبرة المتلقي، ويدفعه إلى تأمل الدلالة المقصودة من تجاوز المتناقضات" ومن ذلك حيرة ابن عربي وصراعه بعد رحيل زوجته مريم، ووقوعه في حب نظام إذ يقول: "شعرت أن في قلبي أشيباً يحتضر وطفلاً يولد سكرات وصرخات لحد ومهد شمس تشرق وأخرى تغرب مريم تسترد حبها وترحل بعيداً ونظام تخاتل مشاعري دون أن تقدم وبين المرأتين من أنا؟ أين شيوخي ودروسي وبقية أوتادي؟ ... صوفي أنا أم عاشق؟ أم كلاهما معاً؟ عالم أم عارف؟ شيخ أم مريد؟ ولي أم شقي؟ يارب لا أقطع طوافي هذا حتى أرسو على بر" (علوان، 2016، صفحة 316) ويتضح في هذه الأسطر كم الألفاظ العرفانية التي وظفها ابن عربي الشخصية، فضلاً عن حالة البحث التي دخلت فيها الشخصية وتأثير روحانية المكان، بيت الله الحرام، وفعل الطواف. ويربط الباحث الجمعان في بحثه المتعلق بشخصية المثقف في روايات علوان أن مرد هذه الخصوصية لشخصية ابن عربي كانت ضمن أطر محددة وضعها الروائي لتصورات الثقافة بالنسبة لشخصياته المختارة، حصرها في مجالات متعددة ضمن موضوعات رواياته، وهذا ينطبق كذلك على عودته إلى التاريخ في رواية (موت صغير) التي يراها الباحث المشار إليه أنها "عودة نخبوية الاصطفاء، بسرده حياة ابن عربي بطبيعتها المثقفة" (الجمعان، 2024، صفحة 444). ولكون أحداث الرواية في مستواها الثاني، مستوى المخطوط، تدور في حياة ابن عربي المتخيلة، وهو من متصوفي القرن السابع الهجري فنجد أن الروائي قد حرص أن تكون لغته قريبة من اللغة المستعملة آنذاك، دون استخدام مفردات أو أساليب تشير إلى ما بعد تلك الفترة الزمنية أو قبلها في متن الرواية، إلا بعض العبارات والأساليب المستخدمة في العصور التالية لعصر ابن عربي في أحداث إطار الرواية، مستوى السرد الأول، التي حرص المؤلف فيها على أن تكون لغتها قريبة من الفترة الزمنية التي وقعت فيها الأحداث، وما يصاحبها من ألفاظ وعادات ومظاهر حضارية، وأن يستعين من الروايات المعاصرة بالأساليب والتقنيات الحديثة في رسم الشخصيات وبناء الحدث وغيرها من عناصر الرواية، واسهم استدعاء الكثير من المفردات الصوفية، في نقل صورة مقاربة وواقعية للأحداث التاريخية التي عاشها ابن عربي من خلال التناص بالمفردات والمصطلحات الشائعة في الخطاب الصوفي بصورته العامة في ذلك العصر، وكذلك استدعاء الألفاظ والمعاني الدارجة في حياة الناس اليومية وعاداتهم في الملابس والمأكول والمشرب وغيرها (المقيم، 2020، صفحة 60)، فضلاً عن استحضر الروح اللغوية التي كانت سائدة في زمن القصة التي تروى في العمل الروائي فإننا يمكننا أن نحدد مستوى آخر من مستويات اللغة الواردة في النص، وهي مستوى النصوص المقتبسة حرفياً، وهي الآيات القرآنية الكريمة، والتي تمتاز بسماتها المعروفة من أقصى الفصاحة والبلاغة والإعجاز، فضلاً عن الجمل الاستفتاحية التي اختيرت لتصدر كل مقطع من مقاطع الرواية في مستواها السرد الثاني (المخطوط) وهي عبارات للشيخ الأكبر ابن عربي، وظفت في النص لتكون رمزاً لما يدور في المقطع من أحداث، وغالب تلك الاقتباسات كانت من (رسالة الذي لا يُعَوَّلُ عليه) لابن عربي، فمن أصل المقاطع المائة التي شكلت متن الرواية حضرت اقتباسات ابن عربي في واحدٍ وتسعين مقطعاً، سبعة وثلاثون مقطعاً منها كانت من (رسالة الذي لا يُعَوَّلُ عليه).

تسطع البصيرة. ثم يكشف الله لي ما يأمر به عبده الفقير إليه المنقطع إلا منه، يأمرني أن أكتب كتاباً وأكشف علماً وأصحب شيخاً وأحمل مريداً وأخلو عندما أحتاج إلى الخلوة وأجلو عندما تحل الجلوة. كل ما أفعله في طريقي إلى الله هو أمره وتدبيره: السهل والشاق، الفرح والحزن، الحل والترحال، العلم والشطح، الحرف والرقم، الكلام والسكوت، وأصبحت قطب الشأن الإلهي، وغوث الآن الزماني، مرآة الحق، في يدي طلسم الله الأعظم، وقسطاس الفيض الأعم، و...". (علوان، 2016، صفحة 9) فجد من التراكم الاصطلاحي العرفاني (الملكوت، الشيخ والمريد، الخلوة والجلوة، والشطح، الحرف والرقم، القطب، الغوث، طلسم الله الأعظم، قسطاس الفيض الأعم) فضلاً عن أن النص فيه إشارة إلى عجز اللغة عن إدراك التجليات التي يمر بها الصوفي في تجربته والتعبير عنها، وهو ما سبق لنا الإشارة إليه آنفاً. فالحروف هي الحقائق البسيطة من الأعيان (الكاشاني، 1992، صفحة 81) والحرف عند ابن عربي هو أجزاء كلمة الحق المقولة، وهو كل حقيقة مفردة في أي عالم من العوالم (الحكيم، 1981، صفحة 320)، وهو عنده اللغة، وما يخاطبك الحق به من عبارات (الجرجاني، 2003، صفحة 218). والشطح عند الطوسي هو عبارة مستغربة في وصف وجد فاض بقوته، وهاج بشدته وغلبيته وغلبيته، فالشطح مأخوذ من الحركة، لأنها حركة أسرار الواصلين إذا قوي وجدهم فعبروا عن وجدهم ذلك بعبارة يستغرب السامع منها، فالمريد إذا قوى وجدته ولم يطق حمل ما يرد عليه على قلبه من سطوة أنوار حقائقه سطع ذلك على لسانه فيترجم عنها بعبارة مستغربة مشكلة على فهم السامعين إلا من كان من أهلها ويكون متبحراً في علمها (الطوسي، 1960، الصفحات 453-454)، و (الحكيم، 1981، صفحة 650)، وعند الشيخ ابن عربي الشطح كلمة عليها رائحة رعونة، ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين (الجرجاني، 2003، صفحة 212) وأما الغوث فهو القطب وقد مررنا عليه، وأما طلسم الله الأعظم، فالطلمس كلمة أعمية يستعملها العربي بمعنى الخفاء والكنم، وعند الشيخ الأكبر إن الإنسان هو طلسم العالم، أي سر العالم، فلو رفع الإنسان من العالم لتهدم العالم، أي قامت القيامة، فموت آخر إنسان تنتقل عمارة الكون إلى الدار الآخرة، لذلك هو سر العالم والطلسم الأعظم (الحكيم، 1981، صفحة 735)، وأما الشيخ فقد فارت كلمة الشيخ عند المتصوفة معناها اللغوي الدال على فترة من حياة الإنسان، إلى كونها مرتبة وظيفية، فالتجربة الصوفية المنبثقة عن مجاهدة المريد لنفسه تدخل في معركة عدوها فيها يمتلك من الأسلحة الخفية الشيء الكثير، ولعل أخطرها مقدرة النفس على تسخير العقل لخلق مبررات لأفعالها، فالعقل إذا سخر للنفس أخضع الإنسان بجمعيته لها، فكل ما يقوم به الإنسان يخيل إليه أن مصدره عقلائي، وهو في الواقع نفساني، وقد تنبه الصوفية إلى خطر النفس وهيمتها وسلطانها على كونيات الإنسان جميعها، لذلك رأوا أن أصوب طريقة لمحاربة النفس هي تسليم هذه الإرادة إلى "غير" فلا يكون للنفس في هذه الإرادة نصيب، فتضعف النفس تدريجياً على مستوى الشهوات وتبرز الروح في الإنسان وهذا الغير الذي تسلمه الذات إرادتها هو المشار إليه عند الصوفية بالشيخ، فهو الدليل في سفر الصوفي إلى معرفة الحق، وهو مربى يشذب شطحات النفس، وهو مؤدب يعد المريد للوقوف بين يدي الحضرة بما يليق بأدبها (الحكيم، 1981، صفحة 671)، فالشيخ هو الإنسان الكامل في علوم الشريعة والطريقة والحقيقة، البالغ إلى حد التكميل فيها، لعلمه بأفات النفوس وأمراضها وأدوائها،

الحق يتبع الماهيات غير المجعولة، فهو يُفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل (الجرجاني، 2003، صفحة 145) والقطب عند الشيخ الأكبر ابن عربي يمثل "كل شخص يدور عليه أمر من الأمور، أو مقام من المقامات أو حال من الأحوال، مثلاً الزهد والتوكل وكل ما توصل إلى تعادده المتصوفة من المقامات والأحوال، لكل منها قطب تدور عليه" (الحكيم، 1981، صفحة 910)، أما لفظة الطريق فهي عند المتصوفة تختصر جملة الطريق إلى الله، لذلك كان من الشمول بحيث تندرج تحته التجربة الصوفية بكاملها، ابتداءً من تنبه القلب من غفلته مروراً بمجاهدة النفس ورياضتها وصولاً إلى النشاط الروحي وتفتح فعاليته (الحكيم، 1981، صفحة 720)، والطريق عند الشيخ ابن عربي عبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها (الجرجاني، 2003، صفحة 212) وهذه الطريق التي يتحدث عنها السارد التي قطع فيها رحلته وانتهت به إلى الكوخ موضع التنبير، ليست طريقاً حقيقية وإنما هي طريقه إلى الله التي قطعها في مراحلها ومتطلباتها المختلفة ليحقق له بعد ذلك الجذب في المقطع اللاحق، يقول: "كنت نائماً عندما بايعتني القوى العلوية في الليلة التي سبقت خروجي من ملطية. جذبتني فارتفعت عن فراشي معلقاً في الهواء قيد شبر محمولاً بإرادة العزيز الجبار. لم تكن جذبة مفاجئة بل انضرت حدوثها في أي لحظة منذ أكملت طوافي على أوتاد الأرض طوافاً كتب علي قبل ولادتي" (علوان، 2016، صفحة 9)، وهو يستمر في توضيف اصطلاحات المتصوفة الذين هو منهم في هذا الشاهد، فالجذبة التي يتحدث عنها هي تقريب العبد بمقتضى العناية الإلهية المهينة له لكل ما يحتاج إليه في طي المنازل إلى الحق بلا حلفة أو سعي منه (الكاشاني، 1992، صفحة 65)، ولم تكن تلك الجذبة لتتحقق إلا لكونه قطع الطريق إلى الله مواصلاً السفر فيها حتى نهايتها، والسفر بحد ذاته اصلاح صوفي يشير إلى سير القلب وتوجهه إلى الحق بالذكر (الحكيم، 1981، صفحة 581) و (الكاشاني، 1992، صفحة 122)، وأما الرياضة والمجاهدة فيتفق الصوفية على حتميتهما في الطريق إلى الله، فهما المدخل الوحيد للتحكم في النفس الإنسانية والسيطرة عليها، ولا يفارق المريد الرياضة والمجاهدة مهما تقدم به الطريق، بل يلازمه ذلك ملازمة نفسه له، أي إلى الموت، والفرق بين المجاهدة والرياضة أن الرياضة هي الخروج عن طبيعة النفس، فهي تهذيب الأخلاق والنفس، أما المجاهدة فأقسى منها، وهي حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال (الحكيم، 1981، الصفحات 724-725)، (الجرجاني، 2003، صفحة 215) وتعد المجاهدة والرياضة من شروط ومقدمات التخلي، أي اتخاذ الخلوة، لما فيها من تهيئة المحل للتجليات بقطع علائق الأكوان، وللخلوة شروط عند ابن عربي تنظر إلى حال طالبها، ومكانها، ومقدماتها من عزلة ومجاهدة دون تحديد زمنها، وهي تنتفي بحصول المراد منها (الحكيم، 1981، صفحة 434)، وهي محادثة السر مع الحق بحيث لا يرى غيره. هذا حقيقة الخلوة ومعناها، أما صورتها فهي ما يتوسل به إلى هذا المعنى من التبتل إلى الله (الكاشاني، 1992، صفحة 180)، ويرتبط الجوع بالرياضة والمجاهدة، إذ يعده الشيخ الأكبر ركناً من أركان المجاهدة وفيه تصفية للقلب وكسر النفس عن الشهوة (الحكيم، 1981، صفحة 254) تستمر تجليات اللغة الصوفية ومصطلحاتها في المقطع الأول فيتابع السارد قائلاً: "ولكن كل جذبة تصعقتني حتى يصير قلبي حمامة في الملكوت، وكلامي فهو نائياً لا تدركه الأسماع، وينخطف البصر بنور الله ولكن

ومعرفته بذواتها، قدرته على شفائها والقيام بهداها، إن استعدت ووفقت لاهتمامها (الكاشاني، 1992، صفحة 172)، ولهذا الشيخ مريد، الذي سمي كذلك لأنه أراد الوصول إلى معرفة الحق أو الحضرة الإلهية، ولأنه يحرر هذه الإرادة من نفسه، بتسليمها، فالمرید عند الشيخ محيي الدين بن عربي هو المتجرد عن إرادته (الحكيم، 1981، صفحة 724) (الجرجاني، 2003، صفحة 211) وقد مررنا على الخلوة، أما الجلوة فهي خروج العبد من الخلوة بالنعوت الإلهية (الجرجاني، 2003، صفحة 218).

ويختتم السارد المقطع بتقديمه لما سيكتب قائلًا: "بسم الله الرحمن الرحيم. قال السالك محيي الدين بن عربي... (علوان، 2016، صفحة 10) فالسالك عند المتصوفة هو السائر إلى الله، المتوسط بين المرید والمنتهى مادام في السير (الكاشاني، 1992، صفحة 119)، والسالك عند الشيخ ابن عربي هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه، وكان العلم له عيناً (الحكيم، 1981، صفحة 585) (الجرجاني، 2003، صفحة 211) ويبدأ بعد هذا المقطع السفر الأول من المخطوطة التي خطت بقلم شخصية ابن عربي الروائية نفسها، وتسليطنا الضوء على تفصيلات المصطلحات الصوفية في هذا المقطع (الأول) المسرود على لسانه إنما انطلقنا فيه من تركز اللغة العرفانية بتراكيبها ومفرداتها فيه، ذلك أن هذه اللغة ستتغير وفقاً لتغيرات تمر بها القرون التي نتابع من خلالها مسيرة مخطوطة سيرة حياة الشيخ الأكبر حتى تنتهي بلغة العصر الحديث التي لا ترتبط باللغة أو المصطلحات الصوفية كما سيتبين لنا لاحقاً.

تستمر هذه اللغة في المقطع التالي من سلسلة مقاطع المستوى الأول للسرد، متابعة تنقلات مخطوطة ابن عربي، ذلك أن السارد يتحول من الشيخ نفسه الذي سرد المقطع الأول، إلى مريده الذي يتولى عملية السرد في المقطع الثامن من الرواية، وهو الأخير من مقاطع السفر الأول، والذي يروي وجود المخطوطة في حلب بعد ستة وثلاثين عاماً من محطتها الأولى، عام 1248/646م. وفي هذه المحطة يحافظ السارد نفسه على موقعه، فيروي الأحداث بضمير المتكلم، ويستمر في لغته التي تزينها المصطلحات ذاتها، لكن أخف من المقطع السابق، المحطة الأولى في أذربيجان، يقول السارد: "كل درس ألقاه علينا كان يجعل كلاً منا يأوي إلى حجرته في الخانقاه وهو يشعر أنه صار أخف وزناً من فرط انفصاله عن الأرض واقترابه من السماء، شعرت أنني وجدت شيخي الذي أريد بعد سنوات من التردد إلى كل مشايخ الصوفية في القاهرة، ولكن غريباً ورحالاً؟ ماذا سأفعل إذا شد رحاله ومضى؟ لا أسوأ من فطام المرید قبل أوانه فإنه لا يشبع بعد ذلك قط. ولم أكن قادراً على تحمل فكرة هذه المجاعة الروحية التي تحرق بي لو أن سيدنا محيي الدين بن عربي يرحل دوني" (علوان، 2016، صفحة 52)، ينتهي المقطع بوفاة المرید (سودكين) الذي أخذ موقع السارد في محطة المخطوطة الثانية، لتنتقل في مرحلتها الثالثة إلى يد ابنه (طاهر) بعد إحدى عشرة سنة وهو لا يزال في حلب، لكنه يغادرها إلى دمشق بعد أن تأثرت المنطقة بسقوط بغداد على يد هولاكو، إذ تدور أحداث المحطة الثالثة من محطات رحلة المخطوطة في العام 657/1259م. لكن من يتولى السرد في هذا المقطع هو (إسماعيل) ابن طاهر، وهنا تغيب اللغة الصوفية تماماً، وإنما نلمح في مفردات السارد وتراكيبه ما يشي بكونه تاجراً وابن تاجر، فهو مهتم بما آل إليه وضع السوق في حلب، وكيفية تجهيز القافلة، وعقد صفقة من صاحب الجمل الذي أبدله بعشرين بقرة، يقول السارد: "لم أر السوق الذي نشأت في أرجائه مذ كنت

طفلاً في مثل هذه الفوضى من قبل. كل البضائع مصفوفة عند أبواب الحوانيت وليس في جوفها. الدواب تساق وسط السوق وليس في أطرافه ولكن لا أثر لأمناء السوق ليضبطوا شؤونه. أصوات الباعة أصبحت صراخاً عالياً يعلو بعضهم بعضاً. انتشرت البسط في غير مواضعها. بائع السرج في سوق العطارين، وبائع القماش في سوق الحدادين (...) وكنت أنتظر ثورته إذا علم بصفتي الخائبة ولكنه لم يفعل. (...) هل انتبه إلى أنني قايضت عشرين بقرة بجمل أم لا؟" (علوان، 2016، صفحة 98)، صحيح أن اللغة العرفانية غابت في هذا المقطع من السرد، لكن احتفظ السارد والشخصيات بخصوصية اللغة التي تتناسب مع الفترة الزمنية التي فيها الأحداث، ولم تتحدث بلغة تشابه لغة عصرنا الحالي، بل كان المستوى اللغوي المشابه للغة التي كتب بها التراث الأدبي والأخبار التاريخية، فروي المقطع وما بعده بلغة تاريخية، وهذه اللغة التاريخية تروي أحداثاً تاريخية حصلت آنذاك. وتستمر هذه اللغة التاريخية في المقطع التاسع والعشرين الذي يروي محطة المخطوطة الرابعة، فيعد عام واحد فقط من وصولها إلى مرقد الشيخ الأكبر يصل الخراب لدمشق نفسها، فينجو بالمخطوطة خادم المرقد في العام 658/1260م من دمشق بنية الذهاب إلى الكرك، خوفاً من أن يطالها التخريب، وذلك بعد أخذ إذن قاضي دمشق (يحيى بن الزكي)، يقول السارد في حوار مع القاضي:

" سأخرج من دمشق. وهل تعرف بلاداً غيرها يا عماء؟ وأين ستذهب؟

إلى الكرك يا ولدي. أبناء عمومتي هناك. ويعتنون بك؟

يعتني بي الله الذي أخرجني من العدم. إنما أستأذنك لأخذ معي ما في التربة من كتب ورسائل لعلني أجد لها حرزاً أمناً في الكرك. فإني لا آمن أن يقتحم الأشقياء التربة ويخربوا ما فيها. أنت أحفظ لها مني يا عماء. سأعطيك راحلة وسائساً، وسأحاول أن أدبر لك حارسين يصحباتك إلى الكرك فالتريق غير آمنة" (علوان، 2016، صفحة 186)، وبقي المخطوط في دمشق حتى عام 708/1309م عندما وقع في يد (أبي الفداء) واستأذن باصطحابه معه من الكرك إلى دمشق التي أمره الملك الناصر بالخروج إليها خفية امتثالاً لأمره، وتستمر مع هذه المرحلة اللغة التاريخية بينما تغيب اللغة الصوفية، حتى نهاية مسيرة المخطوطة، بينما تستمر اللغة التاريخية، إلى أن تصل المخطوطة إلى يد الأمير عبد القادر الجزائري في منفاه في دمشق في العام 1290/1873، في المقطع الرابع والسبعين من الرواية الذي يسرده الأمير بنفسه، فيكون هذا المقطع مرحلة انتقالية بين اللغة التاريخية وما بعدها من لغة حديثة في المقطعين الرابع والثمانين 1344/1825م دمشق والثالث والتسعين 1402/1982م حماة، ومعاصرة في المقطع الثامن والتسعين الذي يروي آخر محطة من محطات رحلة المخطوطة عام 1433/2012م. فتبدأ اللغة بأخذ الأسلوب المعتاد في أيامنا هذه، وتبدأ الشخصيات بلغة الحوار العامية، وتبدأ مفردات العصر الحديث وأدواته بالظهور يقول السارد: "اعتدلت جالساً وربت على كتفها وهي نائمة إلى جواربي:

قومي يا لطفية!

ما طلع الفجر يا أبو حاتم!

على كيفك. ما أكثر نومك!

تناولت ساعتى المستديرة من الطاولة الجانبية ووقفت متجهاً إلى الحمام وأنا أقول لها:

سيبدأ القصف بعد ربع ساعة على كل حال. لا يوقظك إلا القنابل" (علوان، 2016، صفحة 487)، وكتبت هذه المقاطع بلغة حديثة فيها مفرداتنا التي نتحدث بها ونكتبها، وتفصيلات حياتنا اليومية في العصر الحديث، فالقنابل والأحزاب والجيش والأسلحة وحتى شهادة الدكتوراه والمقهى البحري وجامعة السوربون واللجوء، كل هذه المفردات أدت إلى أن تبتعد اللغة عن المستوى الذي بدأت به، وتصبح معاصرة للحدث في السنوات الأخيرة من رحلة تنقل المخطوطة التي بدأت قبل ثمانمائة عام من محطاتها الأخيرة التي وصلت فيها ليد الدكتوراة المتخصصة بنتاج الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي وحياته.

نتائج البحث:

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

أن الرواية العرفانية هي الرواية التي تعيد تسريد سيرة حياة شخصية من الشخصيات المتصوفة أو عارفيهم، وتسرد بضمير المتكلم ساردة تجربة تلك الشخصية الروحية ورحلتها في معارج الطريق إلى الله حتى يتحقق لها الكشف.

وخصوصية لغة السرد العرفاني تنبع من خصوصية لغة العرفان الإسلامي نفسه، التي لا تؤخذ بظاهر الكلم، وإنما تتمتع برمزية عالية المستوى ومعانٍ خاصة وتعتمد الروايات العرفانية هذا الأسلوب اللغوي إمعاناً منها في إيها المثلثين بحقيقية ما ترويه وكونه جزءاً من أجزاء النصوص العرفانية. ويندرج ضمن لغة الرواية العرفانية تضمنها للعديد من المصطلحات العرفانية وما يعبر عنها في المتن الروائي وذلك من خلال السرد أو الحوار وفقاً لما اتضح في الرواية قيد البحث.

مصادر البحث ومراجعته REFERENCES

- الجابري، محمد عابد. (2009) بنية العقل العربي دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجرجاني، علي بن محمد. (2003) كتاب التعريفات ويبله بيان رسالة اصطلاحات الصوفية الواردة في الفتوحات المكية دار إحياء التراث العربي.
- الجمعان، سامي عبد اللطيف (2024).، مارس. تمثيلات الشخصية المثقفة في روايات محمد حسن علوان. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، (1) 21، 457-463
- الحجري، د. إبراهيم. (2015). الرواية العرفانية: مدخل لمعرفة قضايا النوع. مجلة ذوات، 23-16
- الحكيم، د. سعاد. (1981). المعجم الصوفي الحكمة في حدود الكلمة. دندرة للطباعة والنشر.
- الحنفي، المولى تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي المصري. (1983). الطبقات السنوية في تراجم الحنفية. دار الرفاعي.
- الخفاجي، هشام (د.ت) التصوف والعرفان مراحل التصوف وأفكاره التي انتشرت باسم العرفان. د.م. دن.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. (2001). سير أعلام النبلاء. مؤسسة الرسالة.
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس. (2002). الأعلام. دار العلم للملايين.
- السرجاني، راغب (د.ت) التتار من البداية إلى عين جالوت.
- الطوسي، أبو نصر السراج. (1960). اللمع حقه وقدم له: د. عبد الحلیم محمود وطه عبد الباقي سرور. دار الكتب الحديثة ومكتبة المثني.
- القاضي، محمد علي وآخرون. (2010). معجم السرديات. دار محمد علي للنشر والتوزيع، ودار الفارابي.
- الكاشاني، عبد الرزاق. (1992). معجم اصطلاحات الصوفية. دار المنار.
- المطهري، مرتضى. (1992). الكلام العرفان. الدار الإسلامية للنشر والتوزيع.
- المقيم، طارق بن محمد. (2020). أنواع التناس والخطاب الميتاسردي في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان. مجلة الآداب، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، (1) 32، 49-69.
- النفري، محمد بن عبد الجبار بن الحسن (د.ت) كتاب المواقف، ويبله كتاب المخاطبات. مكتبة المتنبّي.
- الواروي، عبد اللطيف. (2015). الرواية العرفانية: قضايا النوع، الكتابة والمخيل. مجلة ذوات (10)، 15-10
- الواروي، عبد اللطيف. (2017). عندما يتحول بطل الرواية إلى شاهد آني. القدر العربي :
- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله العقيلي الحلبي (2016). بُغْيَةُ الطَّلَب في تاريخ حلب. مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - مركز دراسات المخطوطات الإسلامية.
- ابن العربي، الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد (1994). رسالة رواح القدس في محاسبة النفس. دار الإيمان.
- ابن العربي، الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد، عبد العزيز سلطان (محرر). (2017) الفتوحات المكيّة. المجلس الأعلى للثقافة.
- ابن عربي، الشيخ الأكبر محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد. (2004). التجليات الإلهية، ومعه تعليقات ابن سودكين وكشف الغايات في شرح ما اكتنفت عليه التجليات لمؤلف مجهول. دار الكتب العلمية.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. (2008). معجم مقاييس اللغة المجلد الثاني. دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي. (1997). البداية والنهاية المجلد 17. دار عالم الكتب.
- أبو رحمة، أماني. (2010). جماليات ما وراء القص دراسات في رواية ما بعد الحداثة. دار نينوى.
- أبو رحمة، أماني والطائي، د. معن. (2011). الفضاضات القادمة الطريق إلى بعد ما بعد الحداثة. القاهرة: مؤسسة أروقة للدراسات والترجمة والنشر.
- الأحمر، فيصل. (2010). معجم السيميائيات. منشورات الاختلاف.
- البازعي، د. سعد (2017)، موت صغير خيارات السرد اختيار علوان لسيرة صوفي شهير يضع ثيمة الحب في منظور مختلف. الشرق الأوسط :
- <https://aawsat.com/home/article/956601/%C2%AB%D9%85%D9%88%D8%AA-%D8%B5%D8%BA%D9%8A%D8%B1%C2%BB-%D8%AE%D9%8A%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D8%B1%D8%AF>
- البريكي، د. عبد الإله. (2015). الرواية العرفانية: ماهيتها، إشكالات تلقّيها وخواصها السردية. مجلة ذوات (10)، 30-43.
- ألبيريس، ر. م. (1982). تاريخ الرواية الحديثة. منشورات بحر المتوسط - منشورات عويدات.
- التفتازاني، د. أبو الوفا الغنيم. (1979). مدخل إلى التصوف الإسلامي. دار الثقافة للنشر والتوزيع.

- عبود، د. طارق" (2018). موت صغير .. حياة ابن عربي بين الحقيقة والخيال
<https://www.almayadeen.net/books/863918/-%D9%85%D9%88%D8%AA-%D8%B5%D8%BA%D9%8A%D8%B1----%D8%AD%D9%8A%D8%A7%D8%A9-%D8%A7%D8%A8%D9%86-%D8%B9%D8%B1%D8%A8%D9%8A-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AE%D9%8A%D8%A7>
- علوان، محمد حسن. (2016). موتٌ صغير. دار الساقى.
- لحويشي، محمد، & سويب، حميد. (2020). تجليات العرفانية والمقامات الصوفية في رواية جيل قافل ل" عبد الإله عرفة" أنموذجاً [رسالة ماجستير غير منشورة]. الجمهورية الجزائرية، جامعة محمد بن مضياف، كلية الآداب واللغات: إشراف: د. العربي عبد القادر.
- مجموعة مؤلفين. (2001). المنجد في اللغة العربية المعاصرة. بيروت: دار المشرق.
- مجموعة مؤلفين. (2017). معجم مصطلحات العلوم الشرعية. مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية.
- مستار، أمينة. (2012). بنية الصوفي في رواية "كتاب التجليات" لجمال الغيطاني. مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم(12)، 187-207.
- ملاحى، د. علي وآخرون. (2022). السرد الصوفي العربي المعاصر. جامعة الجزائر، كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية: مخبر الخطاب الصوفي في اللغة والأدب.
- نجاحي، د. نجلاء (2016). دلالة المعالم المكانية في السرد العرفاني بين التاريخي والمتخيل رواية "الحواميم" لعبد الإله بن عرفة أنموذجاً. العلامة،(1)، 1-193.
- يقطين، سعيد. (1997). قال الراوي البنيات الحكائية في السيرة الشعبية. المركز الثقافي العربي.
- <https://www.alquds.co.uk/%EF%BB%BF%D8%B9%D9%86%D8%AF%D9%85%D8%A7-%D9%8A%D8%AA%D8%AD%D9%88%D9%91%D9%84-%D8%A8%D8%B7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D9%88%D8%A7%D9%8A%D8%A9-%D8%A5%D9%84%D9%89-%D8%B4%D8%A7%D9%87%D8%AF-%D8%A2%D9%86/>
- بحراوي، حسن. (2003). بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية). المركز الثقافي العربي.
- برنس، جبرالد. خزندار، عابد (مترجم) (2003). المصطلح السردى. المشروع القومي للترجمة المجلس الأعلى للثقافة.
- برنس، جبرالد. إمام، السيد (مترجم). (2003). قاموس السرديات. ميرييت للنشر والمعلومات.
- بن صغير، ريان. & بركة، لطيفة. (2020). المنحى العرفاني في رواية "قواعد العشق الأربعون" لإليف شافاق [رسالة ماجستير غير منشورة]، بإشراف د. وهيبه جراح: الجمهورية الجزائرية، معهد الآداب واللغات، قسم الأدب العربي.
- بن عرفة، د. عبد الإله. (2015). التاريخ ليس محلا للحقيقة التاريخية كما حصلت، بل هو عملية بناء الأحداث. مجلة نوات(10)،-52، 60.
- بن مالك، رشيد. (2006). السيميائيات السردية. دار مجدلاوي.
- تيشة، سميرة. (2023). توظيف التراث في رواية موت صغير. مجلة جسور المعرفة،(3)، 9، 398-410.
- جرمان، كلود، & لوبلون، ريمون. (1997). علم الدلالة. منشورات جامعة قاربنوس.
- حمدي، أيمن. (2000). قاموس المصطلحات الصوفية دراسة تراثية مع شرح اصطلاحات أهل الصفاء وكلام خاتم الأنبياء. دار قباء للطباعة والنشر.
- خطاب، محمد. (2006). اللغة في العرفان الصوفي. مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم(6)، 61-71.
- رسول، د. رسول محمد. (2015). تسريد العرفاني في الرواية العربية قراءة في تجربة سابع أيام الخلق لعبد الخالق الركابي. مجلة نوات(10)، 24-29.

لايهنى زمانى رومانا عيرفانى و زاراوين وئ: رومانا "موت صغير" يا محمهد حسهن علوان وهك نمونه

پوخته:

ئهف فمكولينه گنگهشما ناريشما زمانى فمگيرانى، ب تايهتى فمگيرانا عيرفانى دكهت. كومهكا پساران دنخيته بهردست كو ژ ناسناميا رومانا عيرفانى دهستيندكهن: ئهري ئهف رومانه وهك رومانهكا ميژوويى دهئته ههژمارتن يان شيوازهكى فمگيرانكى يى جودايه ژ شيوازى ميژوويى؟ ئهري زمانهكى تايهت ب خو فه ههيه كو جودا بيت ژ زمانى رومانين عهري يى ههچرخ؟ ئهف زمانه دئ چهوا بيت و ئهري د ناچهرا زمانى ناخفتنى (ديالوگ) و زمانى فمگيرانى دا د ههمان رومان دا جوداهى ههيه؟

فمكولين بزافى دكهت بهرسفا ئهقان ههيمى پساران ل سهر بنهيمايى ئهزمونا روماننقىسى سعودى "محمهد حسهن علوان" و رومانو و "موت صغير" وهك نمونه بهت. ههروسان فمكولينى پشتگوه نههافتيهيه كو ئهزمونا فمكولهر و روماننقىسى مهغري د. عهبدولئيله بن عهرفه گرنكيهكا مهزن ههيه، يى كو ژ لايى ژبدهرين رهخهيمى يىن نوى وهك پيشهنگى ئهزمونا فمگيرانا عيرفانى يان رومانو عيرفانى يا عهري دهئته نياسين. لى ههلبزارتا رومانو محمهد حسهن علوان بو ئهري چهندي دزفريت كو چ فمكولينى ب ئهفى رهنگى ل سهر نههاتينه كرن، د دهمكيدا كو ژبدهر و فمكولينى نهكاديمى ل سهر ئهزمونا د. بن عهرفه گلهك د زورن.

فمكولين ل سهر سى تهرمان هاتيهيه دابهشكرن و ميتودى بونياتگهرييا فمگيرانى د شرفهكرنا رومانيدا هاتيهيه بكار نينان: تهرري ئيكى: تيورييه ل ژير نافي (رومانو عيرفانى: چهكم و دهستينيك)، تهرري دووئ: تايهته ب (زمانى سهردى عيرفانى و تايهتهمنديين وى)، و تهرري سيني: تهرري شيكارييه ب نافي (زمانى عيرفانى و زاراوين وئ د رومانو "موت صغير" دا). جهى ناماژهيدانى به كو ئهف فمكولينه پشكهكه ژ زنجيره فمكولينى گرئداى ب پهيوهندييا د ناچهرا رومانو عهري و ميژوويا عهريهيدا، كو عيرفانا عهري-ئيسلامى پشكهكى ژى بيكدنيت. پهيفين سهرهكى: رومانو سعودى، رومانو عيرفانى، زمانى فمگيرانى، موت صغير، محمهد حسهن علوان، فمگيرانا عيرفانى.

THE LANGUAGE OF THE MYSTICAL NOVEL: A CASE STUDY OF MAWT SAGHEER BY MOHAMMED HASSAN ALWAN

ABSTRACT:

This research examines the narrative language of mystical novels raising key questions: starting with what defines a mystical novel? Is it historical fiction or a distinct narrative style? Does it have a unique language that differentiates it from contemporary Arabic novels? How is this language structured and does it vary in the novel itself between the dialogue and the narration language? The study uses Mawt Sagheer (A Small Death) by Saudi novelist Mohammed Hassan Alwan as a case study to address these questions. While acknowledging the contributions of Moroccan scholar and novelist Dr. Abdelilah Ben Arafa, a pioneer of mystical narration, this research focuses on Mawt Sagheer due to the lack of prior studies on it, unlike the widely analyzed works of Dr. Ben Arafa. The research employs a structural narrative approach and is divided into three sections: The first section was theoretically entitled "The Mystical Novel: Concept and Beginnings" The second section dealt with "The Language of Mystical Narration and its Characteristics" and the last one is an analytical study entitled "Mystical Language in Mawt Sagheer." It is worth mentioning that, this study is part of a broader series of studies on the relationship between the Arabic novels and the Arab history and Arab-Islamic mysticism, providing insights into how mystical language shapes narrative fiction.

KEYWORDS: Saudi Novels, Mohammed Hassan Alwan, Mawt Sagheer, Narrative Language, Mystical Novel